المحاضرة التاسعة : أدوات جمع البيانات في البحوث الكيفية

محتوى المداخلة :

- الملاحظة بالمشاركة.
- المقابلة المتعمقة.
- الوثائق

أهداف المحاضرة :

- التعرف على الآليات المنهجية في اختيار أدوات جمع البيانات في البحوث الكيفية

مقدمة :

تستغني البحوث الكيفية عن بعض الأدوات التي توجب استخدام الإحصاء في التعامل مع بياناتها، وتؤكد على استخدام الأدوات التالية: (يوسف عنصر وآخرون،2000، ص 65)

- الملاحظة بالمشاركة.
- المقابلة المتعمقة.
- الوثائق.(الخياط،2010،ص280)

1-الملاحظة:

هي المشاهدة أو المراقبة الموقعية الدقيقة، لظاهر أو سلوك محدد في خطة البحث، وتسجيل المعلومات أولا بأول.

(عامر قنديلي، 1999، ص197)

وأسلوب الملاحظة استخدم قديما في العلوم الطبيعية ثم انتقل إلى العلوم الاجتماعية والإعلامية، والملاحظة تتطلب مهارات محددة على الباحث أن يتقنها حتى يتمكن من إجرائها بشكل جيد يفيد البحث.

والملاحظة قد تكون ملاحظة كمية (منظمة) أو نوعية (غير منظمة). (الخياط،2010،ص244)

أ-الملاحظة الكمية:

يسعى فيها الباحث لجمع بيانات رقمية (كمية) غالبا عن طريق أداة محددة سلفا فمثلا يقوم بحساب الوقت الذي يقضيه الطفل في الانترنت، فالباحث يهتم غالبا بتسجيل أرقام كوضع أرقام إشارات على سلم تقدير معين.

ب–الملاحظة النوعية:

هي أقل تنظيما من ذلك، فالملاحظ لا يستخدم تصنيفات وأنماط محددة سلفا، بل يسجل ملاحظاته بشكل طبيعي ومفتوح، فيقوم بتسجيل الواقع كما يحدث، والفكرة الأساسية هنا هي أن التصنيف والتوصيف التي تتعرض له المعلومات الناتجة عن الملاحظة ستظهر بعد جمع المعلومات وتحليلها، ولا يتم ذلك أثناء عملية الملاحظة .

وتنشأ الملاحظة غير منظمة من خلال سلسلة من العمليات المختلفة، فتبدأ باختيار الموقف المراد ملاحظنه، وتحديد طريقة الوصول إليه، ثم بدء عملية الملاحظة والتسجيل، ومع تقدم الدراسة أو البحث تتغير طبيعة الملاحظة بحيث تزداد تركيزا، ما يؤدي إلى مزيد من الدقة والوضوح في أسئلة البحث، وهذا بدوره يؤدي أيضا إلى دقة أكثر في اختيار مواضيع الملاحظة، وتستمر الملاحظة بجمع المعلومات حتى يحصل للباحث ما يسمى بالإغراق (التشبع النظري)، وهي الحالة التي يحس فيها الباحث أن الملاحظة لم تأتي بجديد، بل تكرار لما سبق. (المرجع نفسه، ص244)

يمكن الاستعانة في الملاحظة بدفتر الملاحظات (دفتر المشاهدات) هو عبارة عن دفتر يقوم الباحث بإعداده من أجل تسجيل ملاحظاته عليه وتدوين المشاهدات الواقعية، التي قد تساعد الباحث في تحليل موضوع دراسته والتأكيد عليها من خلال ما تم تدوينه من مشاهدات ومن خلال ما تم تسجيله من ملاحظات. (موريس أنجرس، 2004، ص23)

وفي حالة ما إذا كانت المعلومات المتحصل عليها غير كاملة ولا تزال في حاجة إلى دعم لتوضيح وإزالة كل ما هو غامض يعطي لنا البحث الكيفي حل محاولة استكمال البيانات الناقصة، حيث يمكن الاستعانة بشبكة الملاحظات من أجل الحصول على بيانات أدق من خلال اقتراب الباحث من المبحوثين باعتبار أن دفتر المشاهدات يعتبر أداة أكثر ليونة من دليل الملاحظات الذي يعتبر أدق.

مشكلات الملاحظة

من أهم الانتقادات التي توجه للدراسات التي تعتمد على الملاحظة كطريقة لجمع البيانات هو صدق هذه الدراسات؛ خصوصا وأن التحليلات التي يتوصل إليها الباحث تعتمد بالدرجة الأولى على إدراكاته للموقف الملاحظ؛ وبالتالي فإن التفسيرات التي يقدمها قد تتأثر بذاتيته. (Denzin & Lincoln, 1994)

وقد يكون لهذا النقد ما يبرره خصوصا إذا ما علمنا أن انتباه الإنسان، وترميزاته، وذاكرته انتقائية؛ مما يؤثر على صدق الدراسة، هذا بالإضافة إلى عوامل أخرى تتعلق بعلاقاته مع الأشخاص في الموقف موضوع الدراسة، مما يترك أثر على نوع ملاحظاته واستنتاجاته وبالتالي صدق دراسته، ومن أبرز مشكلات الملاحظة ما يلي:

أولا.الانتباه الانتقائي:

يستقبل الإنسان المعلومات من خلال حواسه ويتأثر انتباهه بالمثيرات، وهي المرحلة الأولى لبناء المعلومات والمعارف من خلال اهتماماته، وتوقعاته، هذا بالإضافة إلى خصائص الموقف المثير نفسه، ومن المعروف بأن الفرد ينتبه أكثر لما يتلاءم مع توقعاته واهتماماته؛ وبالتالي فإن هذه العملية انتقائية بحد ذاتها وكل هذا يؤثر فيما يلاحظه الفرد.

ثانيا. الترميز الانتقائي:

إن توقعات الفرد (الملاحظ) عما سيواجهه، أو الذي سيشاهده تؤثر في عملية التركيز، فالتوقعات المسبقة عن الأحداث تؤثر على كيفية ترميزها؛ مما يؤدي على أن يكون الترميز مغايرا على حد ما عما يراه؛ وبالتالي لا تعطي الصورة الحقيقية عن الشيء الملاحظ.

ثالثا. الذاكرة الانتقائية:

ترتبط الذاكرة الانتقائية بانتقائية الانتباه، وانتقائية الترميزات، وهذا يعني أن الأشياء التي لا ينتبه إليها الفرد لا يرمزها ولا يتذكرها، كما أن قدرة الذاكرة على تذكر الأحداث مع مرور الزمن تتأثر سلبا، ولا يصبح الفرد قادرا على تذكر كل الأشياء بل جزءا منها، وذالك إما لأنها ارتبطت بحدث مميز أو موقف معين.

رابعا. العوامل المتعلقة بالعلاقات بين الأشخاص:

في المرحلة المبكرة من الملاحظة بالمشاركة ولاعتبارات خاصة بأمن الملاحظ المشارك وسلامته، ولعوامل عديدة أخرى نجد أن اختلاط الملاحظ وتفاعله يكون مع عدد محدود جدا من أفراد الجماعة التي يقوم بدراستها، وهؤلاء الأشخاص هم الذين يرحبون به ويسهلون مهمته للتعامل معهم، إن هؤلاء الأفراد قد يقودونه إلى التحيز خصوصا إذا ما أصبح يرى الأحداث من وجهة نظرهم هم، وليس كما تحدث في الجماعة، ويصبح التحيز أكثر حدة إذا كان هؤلاء الأشخاص هامشيين داخل الجماعة، وعلاقتهم غير جيدة مع الأفراد الآخرين. (Patton , 1984 , Robson, 1984)

والسؤال هو كيف يمكن تجنب كل هذه العوامل التي تؤثر على صدق المعلومات قد تكون الإجابة بقيام الباحث بجهد حقيقي لتوسيع مدى انتباهه ليشمل كل ما يحيط بالموقف مع الانتباه للموقف نفسه، إن انتباه الباحث للموقف وما يحيط به يخلصه من انتقائية الانتباه، كما عليه أن يبدأ بعقل مفتوح حتى يكون ترميزه حقيقيا وصادقا وثابتا، وبذلك يتخلص من انتقائية الترميز، ويمكن التقليل من انتقائية الذاكرة من خلال الكتابة المباشرة أثناء حدوث الحدث.

ولتجنب العوامل الشخصية المتداخلة في عملية الملاحظة على الباحث أن يطور العلاقات مع جميع أفراد الجماعة حتى لا ينظر الملاحظ للأحداث من خلال وجهة نظر واحدة.(Robson , 1984)

2–المقابلة:

يجتمع في أسلوب المقابلة خصائص نموذج الاتصال المواجهي، ويمكن تعريفها بأنها تفاعل لفظي ومباشر ومنظم بين الباحث والمبحوث أو المبحوثين لتحقيق هدف معين(رجاء محمود علام،2004،ص381)، ومن خلال هذا التعريف يمكن أن تحدد خصائص المقابلة في الدراسات الإعلامية كالآتي :

أنها عبارة عن تفاعل لفظي، يعطي للمبحوث الحرية الكاملة في الإجابة على الأسئلة بالطريقة التي يراها والتعبير عن آرائه وأفكاره ومعتقداته.

أيضا عبارة عن أسلوب منظم، يقوم على مجموعة من الخطوات والإجراءات العلمية والمنهجية التي ينظم اللقاء وتدير الحوار.

أنها ليست مجرد حديث أو حوار عادي بين طرفين، ولكنها تهدف إلى تحقيق هدف معين يرتبط بطبيعة المشكلة أو الظاهرة محل الدراسة.

أ– أنواع المقابلات:(الخياط،2010،ص ص264-265)

أولا.المقابلة المنظمة: وفيها يتم سؤال المشارك سلسلة من الأسئلة المعدة سلفا، والتي سبق وحددت أنماط إجابتها، فهناك قدر ضئيل من التنوع في الأجوبة، وقد تستخدم هنا الأسئلة المفتوحة، وفي المقابلات المنظمة يتلقى جميع المشاركين الأسئلة نفسها، وبنفس الترتيب والطريقة، ويكون دور الباحث محايدا ، وطبيعة هذا النوع من المقابلات يركز على الأجوبة العقلانية وليس على الأجوبة العاطفية.

ثانيا. المقابلة غير المنظمة: وهي مقابلة غير مقننة، ذات أسئلة مفتوحة وعميقة، في المقابلة غير المنظمة يكون دور الباحث أقرب لمدير الحوار أكثر منه مقابلا، وهذا النوع يمكن الباحث من فهم تفكير المشارك وسلوكه دون إسقاط فرضيات الباحث السابقة، أو تصنيفاته عليه، والتي قد تحد من أقوال المشاركين.

ثالثا.المقابلة الجماعية: هي المقابلة التي يعمل فيها الباحث مع مجموعة من الناس في وقت واحد، وفي هذا النوع يكون دور الباحث إدارة الحوار وتسهيل جريانه وانسيابيته، ومهمته تسجيل التفاعل الذي يدور بين المشاركين، وهذا يتطلب مهارات في إدارة الحوار وتوجيهه الوجهة المناسبة، وقد تكون المقابلة الجماعية منظمة، أو غير منظمة، والمقابلة الجماعية قد تظهر جوانب من الحالة المدروسة ربما لا تظهر في أنواع المقابلات الأخرى، وذلك نتيجة لما يعطيه التفاعل بين آراء المشاركين، ومشاعرهم، وخبراتهم من إثراء للمقابلة، وقدح لأفكار الآخرين من المشاركين.

رابعا.المقابلات التقويمية: تهدف إلى تحديد مدى نجاح برامج، أو مشاريع، أو أية محاولات إصلاحية جديدة في تحقيق أهدافها.

خامسا.مقابلات حلقات النقاش (الجماعات البؤرية): هي شكل من أشكال المقابلات الكيفية، والتي يستخدمها باحث مدرب يدير مناقشة الجماعة من أجل توليد بيانات كيفية مهمة لموضوع بحثه، والعنصر المميز فيها هو استخدام مناقشات المبحوثين. (علي عبد الرزاق، 2012، ص241)

وتعتمد مقابلات حلقات النفاش focus croups على التفاعل داخل الجماعة البؤرية نفسها، والفائدة الحقيقة لهذا التفاعل هي تبادل الآراء والخبرات والقصص بين المشاركين وتنتج بيانات ثرية وعميقة وأكثر قيمة وتركيزا من مجرد أن يتم مقابلة المشاركين شخصيا على نحو منفصل، وملاحظة هذا التفاعل يجعل هناك صلات مباشرة بين الباحث وأسلوب الملاحظة بالمشاركة.

وبإمكان استخدام جماعات بؤرية كأسلوب يتركز على الذات وأيضا كأسلوب يضم الآخرين، ولذلك فإن المرونة تعد واحدة من مميزات هذه المقابلة.

3-الوثائق:

الأسلوب الثالث لجمع المعلومات في البحث النوعي تحليل الوثائق، حيث تعد الوثائق التاريخية أو الحديثة مصدرا مهما للبحث النوعي، لا يعتمد الباحث على نوع واحد من المصادر، كالكتب ومقالات ودوريات مثلا، بل هناك أنواع أخرى مثل المذكرات والرسائل الجامعية والتقارير...الخ، والتي قد تكون الوثائق ورقية أو الكترونية، ويجب التركيز على مصاد المعلومات الأولية في جمع المعلومات الوثائقية، قبل اللجوء غلى المصادر الثانوية لأن معلوماتها أدق وأصح.

وغالبا ما تكمل الوثائق أداة أخرى في جمع المعلومات مثل المقابلة أو الملاحظة، فالفصل النظري أو فصل عرض أدبيات الموضوع له جانب مهم في البحوث الوصفية والتجريبية، وهو يعتمد على المصادر والوثائق ذات الصلة بموضوع البحث.

وعموما يمكننا أن نعدد أنواع الوثائق إلى أربعة أنواع رئيسية وهي كالتالي:(الخياط،2010،ص ص 282-283)

أ.الوثيقة الكتابية: لاشك في أن هذا النوع هو الذي يعتد به، ويعتمد عليه لأنه يقوم على واقع ثابت لا يحتاج إلى دراسات مطولة، أو اجتهادات، أو خبرات خاصة قائمة على الترجيح أو التخمين. ويقصد بالوثيقة الكتابية كل ما دون كمخطوط أو مطبوعة، فالرسالة الدورية في علم التوثيق تعني كل نشرة تحتوي على عدة موضوعات لعدد من الكتاب،أو المحررين ولها إسم خاص عنوانها الذي يتعرف به، وتظهر بأجزاء متتابعة وفي مدة محددة، ولزمن معين، وتشتمل عادة: الصحف "الجرائد" والمجلات، المذكرات، التقارير...الخ

ب.الوثيقة التصويرية: هذا النوع من الوثائق في درجة تلي الوثيقة الكتابية والتي تعتبر في علم التوثيق وثيقة مساعدة بمعنى لا يعتد بها وحدها ويعتمد عليها، وهي على الغالب رسم ما نقل بالزيت، أو بالقلم، أو بالفحم، أو صورة، أو نقش في الحجر، وربما تكون الوثيقة صورة شمسية تعين عن التحقيق، فالهوية الشخصية وجواز السفر لا يعتد بهما كوثيقتين في اثبات الشخصية، إلا إذا كان كل منهما يحمل صورة الشخص، والصورة مصدق عليها من مرجع قانوني ومختومة بختم الإدارة الرسمية، فالصورة جاءت هنا مساعدة للوثيقة الكتابية التي هي الهوية الشخصية أو جواز السفر.

ج.الوثيقة التشكيلية: تعتبر هذه الوثيقة كسابقتها في إطار الوثائق المساعدة و ربما جاءت في منزلة الوثيقة التصويرية لأنها مماثلة لها في كثير من المقومات، و غالبا ما يكون لها قيمة مالية كبيرة خصوصا عندما تكون قد صيغت بيد أحد المشاهير في أحد التشكيلية، فالوثيقة التشكيلية في غالب تشتمل على الآثار العمرانية كقصر الحمراء في غرناطة، ومسجد قرطبة، وقصر أشبيلية...الخ.

د.الوثيقة السمعية أو المرئية:

وتدخل هذه الوثيقة كنوع من أنواع الوثائق المساعدة ، وهي في الغالب تسجيلات صوتية أو إذاعية، أو تسجيل اسطواني، أو شريط سينيمائي ناطق.

وكخلاصة للموضوع يمكن استنتاج **السمات العامة لجمع البيانات في البحث النوعي:**

- أدوات جمع البيانات التي يركز عليها البحث الكمي هي الاستبيان والاختبارات والملاحظة المنظمة والمقابلة المقننة بينما يركز البحث النوعي على أدوات أخرى أهمها :الملاحظة المشاركة والمقابلة المتفاعلة والوثائق.
- لا تصمم أدوات البحث النوعي بشكل مسبق متكامل.
- لا يقوم الباحث بتطبيقها على عينة بحث محددة بشكل منهجي وصارم، بل قد يختلف أسلوب المقابلة بين فرد وآخر من أفراد العينة.
- يستخدم الباحث النوعي أسلوب الملاحظة أو أسلوب المقابلة غير المحددة بدقة ، وليست ثابتة الظروف والشروط والأسئلة.
- ما يهم الباحث النوعي بالدرجة الأساس أن يتعمق في الحصول على معلومات وافية.
- إذا وجد الباحث النوعي أن أحد أفراد العينة يمتلك معلومات إضافية مهمة أو جديدة فإنه يمدد وقت المقابلة، ويزيد من الأسئلة، ومن فترة الحوار والاستماع، بغض النظر عما حدث في المقابلات الأخرى.